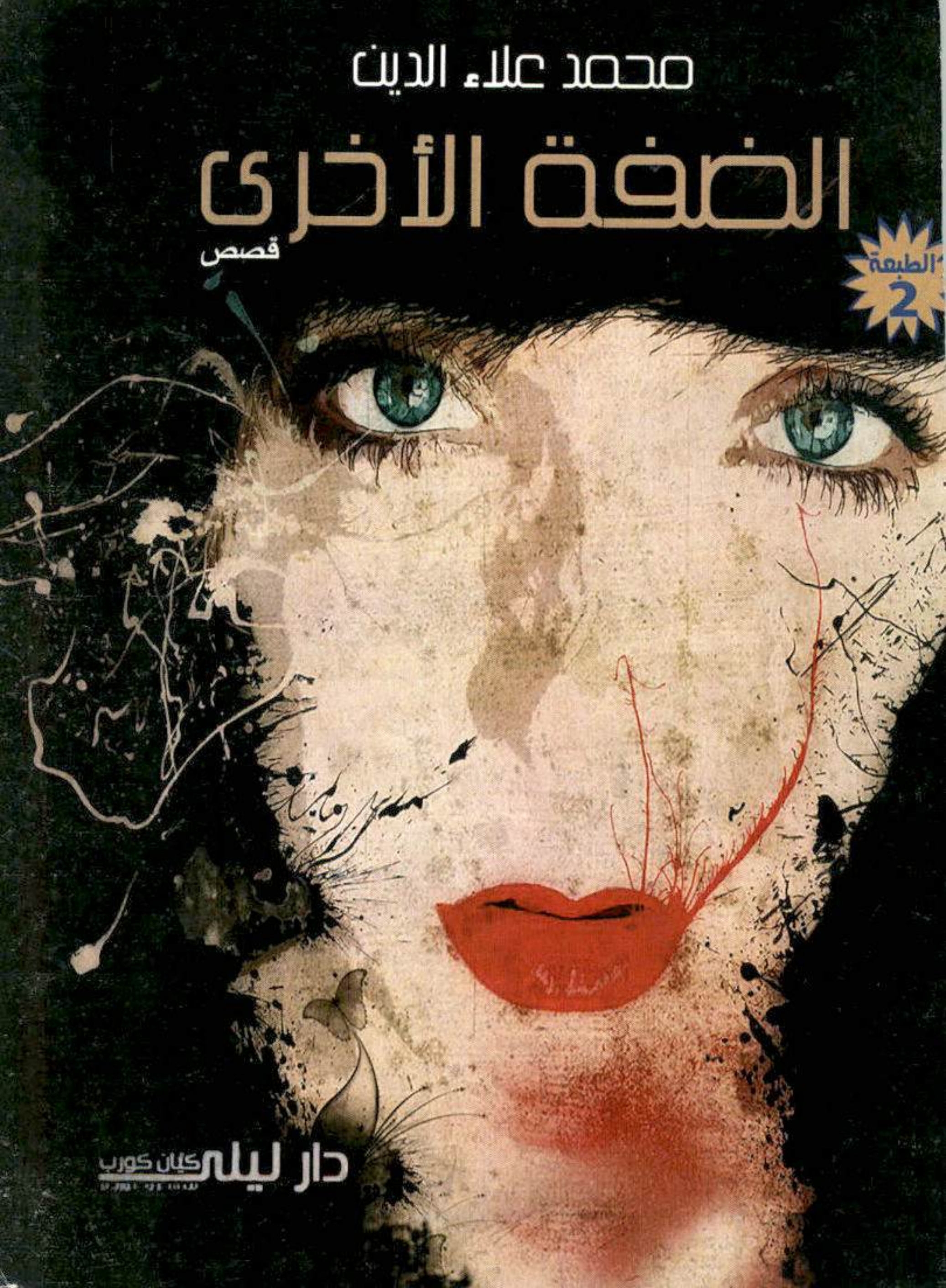

محمد علاء الدين
الضفة الأخرى
قصص
الطبعة
2
دار ليلى كيان كورب

۲۳۷۹۳۳

محمد علاء الدين

الضفة الأخرى

قصص قصيرة

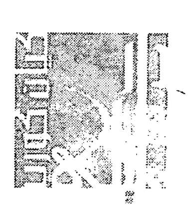
الكتاب:
الضفة الأخرى
المؤلف:
محمد علاء الدين
رقم الإيداع:
3243/2014
الترقيم الدولي:
978-977-5238-90-0
★★★
الغلاف:
محمد محمود
المدير الفني:
حسام سليمان
★★★
مدير التوزيع:
عبد الله شلبي
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★

كيان كورب للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 3885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

محمد علاء الدين

الضفة الأخرى



إلى أبي وعمتي وشادي.

إلى ماما لبنى ومحمود قاسم ود. نبيل فاروق ود. أحمد خالد توفيق ومحسن الزيات وروح د. علاء حمروش وروح رحمي وروح صلاح زكي.

إلى بلال فضل وحمدي عبد الرحيم وعمر طاهر.

إلى محمد سيد ومحمد فتحي وأحمد العايدي ومحمد عبد العزيز ووائل سعد ومحمد كمال حسن ومحمد حسين وياسر حماية وتامر إبراهيم وأحمد حسب ومحمد حماد ووليد خيري.

إلى كريم سنبل وريتشارد فؤاد وإبراهيم فوزي ومحمد درويش وكل شلة «معروف».

إلى د. خولة مطر ود. فريدة العلاقي وإنجي السعدني وعلياء عبد الغني.

«المكنة طلَّعت قماش».

علاء

«لأن العمر طويل. والحياة قصيرة».

اسم آخر للعدم

عدوتُ عبر الأبنيـة الفارغـة، مـدفعي الرشـاش يخـتلج في يـدي، صعود علـى الـسلالم، راقبـت المـساحة الفارغـة مـن البـشر تحـتي. متـى سيظهر العدو؟! أعلم تأكيدا أنه رجل واحد، مقنع مثلي. إما أن أقتله وإما أن يقتلني. لا تعادل هنا. نزول مرة أخرى. أخذت أفتش الأقبية بعنايـة. قد يكون مختبئًا في أي ركن من الأركان أو منزويًا في إحدى الزوايا. الوقت يمضي، أراه أرقاما حمراء تتناقص أمامي. لا بد من أن أعثـر عليـه، أو أن يعثر عليَّ هو، بأقصى سرعة. لمحت حركة خاطفة بطرف عـيني، ماشـيا بين المبنيين الضخمين، أطلقت النار. إختفى وراء ناصية المبنى، اختبـأت من النيران التي أطلقها. فكرت في لحظـة أن ألتـف حـول المبنـى، فعلتهـا جريًـا. فـوجئ بـي في وجهــه وهـو يحـاول الهـرب، أو الالتفـاف إلى هـو الآخر. فتحت عليـه نـيران المـدفع. شـعرت بارتيـاح والـدماء تتفجـر مـن جسده. تهاوى إلى الأرض. من المفروض أن تتجمد حركتي وحركتـه الآن، قبل الانتقال إلى مستوى آخر، لكنني تقدمت بسرعة إلى الجسد الراقد بلا حراك وقلبته على ظهره، نزعت قناعه الضخم وكان ما توقعت. كان أبي.


صياح الديك

حلمت أنني أمشي في الشارع عاريا إلا من لباس بسيط. تكرر الحلم فيما أظنه أجواء مختلفة فصار عصيًّا على النسيان. سألت أم إحدى صديقاتي فقالت إنني يجب أن أرجع إلى الله. بعد بضعة أيام حلمت بأنني أتلقى نقودًا كثيرة جدًّا جدًّا. ثم جاء أبي فمنحني زيادة. اتصلت بالسيدة الطيبة قبل أن أنسى فقالت إن هذا خير. بقيت غير مطمئن فسألت سيدة أخرى، وهي أم لصديقة أخرى، فقالت إنه نذير شر. زاد عدم اطمئناني وصرت عصبيًّا إلى أن حلمت بأنني أرتدي بدلة أنيقة للغاية، تحت بالطو وكوفية أكثر أناقة، والقفازات الجلدية في يدي. صحوت مبتسما ففوجئت بحرارة تتصاعد من الأرض تحتي. وجدت نفسي راقدًا عاريًا إلا من لباس متسخ.

لحظة

بعد سهرة حافلة، استمرت إلى ما بعد السابعة صباحًا، مشيت في شارع الأنتكخانة في طريقي إلى المنزل، بدت جميع البيوت مغسولة بالنور، والخديو إسماعيل يضحَك ضحكة مجلجلة في الأفق.

توقفت عربة ميكروباص على الجانب الآخر، نزلت منها شقراء هيفاء، لا تحمل أي نوع من الحقائب، ولا ترتدي أي شيء يشير إلى أنها ممرضة، ولا حتى شكلها كان يوحي بذلك.

قبل أن أُكوّن فكرة ما عن تلك الفتاة التي ترجع إلى بيتها في تلك الساعة، كان الميكروباص يمضي وكانت الفتاة تشير بيديها وبكل ملامحها إلى طفلة صغيرة تضحك داخله، وعلى وجهها طفولة الدنيا كلها.

حفلة

كان الجو صاخبًا بالفعل.

أخذت خطوة إلى الخلف. الأضواء تبرق وتنطفئ. أصوات الغناء كهدير البحر في نوة. عشرات من الأجساد تلتحم في رقصات مجنونة، وربما كان هذا هو العنصر الوحيد المشترك بينها.

حتى الذين لم يرقصوا، مثل أصدقائي الثلاثة «عمر» و«أحمد» و«صادق»، كانوا ينقرون الأرض بأحذيتهم على خطى الإيقاع.

وبتتابع الأضواء، أمكنني أن أرى أذرعًا صفراء، وأجسادًا حمراء ووجوهًا برتقالية.

الكثير من الناس انتحوا جانبا. بعيدا عن ساحة الرقص، وراحوا يرقصون رقصاتهم الخاصة.

أخذت أنظر إلى أصدقائي. عقد «أحمد» أحد ساعديه على صدره واعتمد بوجهه على يده الأخرى، في هيئة المراقب اللدود. «صادق» انتهز فرصة الصخب وأخذ يسبهم جميعًا دون أن يسمعوه.

«عمر» يحاول أن ينسجم مع الجو العام، لكن نظرات سريعة من وراء عويناته المُغَبَّشة أكدت لي حُزنه. عشرات من الزجاجات الخضراء

تنسكب في الأفواه. التي سرعان ما تنتقل منها وإليها بالتناوب مع السجائر بُنِّية الفلتر.

حاولت أن آخذ خطوة إلى الأمام. أن أتمايل بجسدي. أن أصرخ. أن أصفر. أن ألقيَ نكاتًا عصبية على مسامع «أحمد»، لكني لم أستطِع.

الأمر يحتاج إلى آلة زمن. أشعر الآن بكل هذا يخترقني. يهزني. شعرت فجأة بحالة من الغضب الغريب، الذي يجعلك منقبض العضلات. إن الغضب يرتع في أعماقي. يلعب بأحشائي ويدير رأسي. أريد أن أضرب أي شيء. فجأة، شعرت بحالة من الحيرة. بأن أبي وأمي بعيدان جدا. جدا. استدرت. كلهم من الأزواج. ولد وبنت. ولد وبنت. أين أنا؟ ومن هي؟ بل أين هي؟

خطوات إلى الباب. رأيت ولدا غريبا يطلق شعر رأسه المجعد ويجمعه خلف رأسه بـ«أستك». كلهم ذوو أشكال عجيبة.

كنت أرتدي «جينز» وقميصا عاديا جدا. أحسست في لحظة أنني مميز في هذا المكان.

خرجت من الباب. صعدت درجات من السلالم الرخامية الواسعة في مواجهته. انزويت جالسا جاعلا جنبي إلى الحائط، وأخذت أراقب

الباب شاردًا. الداخل والخارج. رأيت شخصا ما أعرفه خارجا. لم أسلم عليه لأنه تجاهلني. شعرت بالانسحاق. ضممت ركبتي إلى صدري، ناظرا إلى أسفل.

بداية

أحسَ بحفيف الستائر بينما هو منحنٍ، وفكّر كم مرة رأى هذا الحفيف بأذنيه عندما يكون مركزًا على الأرضية الخشبية التي تعددت ألوانها وأشكالها، كبادرة احترام نهائية. كالعادة شعر بنبض العرقين في جانبي رأسه والعرَق ينسال بجوارهما. صدى التصفيق يملؤه والزفير يخرج من أنفه ببطء كما تعود. اعتدل ونظر إلى طيات الستائر المتعرجة المنحنية والظلال تسكنها فتزيدها جمالا. الدماء تعود إلى الجسد من الرأس بشعور ألفه وأحبه، سمع اسمه فعضّ على شفتيه؛ لأنه قد عاهد نفسه مرارًا على المغادرة قبل أن يسمع اسمه يتردد في جنبات الفضاء العظيم المحيط به.

الليلة السابعة

القاهرة تكون جميلة دوما في هذا الوقت. هكذا فكر وهو يمشي بجوار صديقه.

كانت الساعة الثالثة والنصف صباحا. شارع رمسيس طويل و«أسفلته» يلمع تحت الأضواء كجلد جديد لأفعى ضخمة. نظر إلى صديقه الذي يستحث الخطى هازًّا ذراعيه في تناغم دقيق مع وقع خطواته وفمه الذي لم يكف عن الثرثرة. سأله فيما يمكن أن تكون محاولة لإسكاته:

– وماذا تنوي أن تفعل؟!

رد في فتور:

– لست أدري. ربما أتمرن في صحيفة أخرى.

أشعل سيجارة، وسحب نفسا عميقا نفثه كتنين محترف، مكررا الرد ذاته من دون سبب مقنع. كان في قرارة نفسه يعلم أنه المخطئ، لكنه لا يملك الشجاعة لقولها.

وعلى الجانب الآخر، لم يملك صاحبه إلا أن يهز رأسه بشكل يوحي بالتعجب بلا كلمات؛ فقد نفد في أثناء الطريق ذلك المخزون من

عبارات المواساة والأمل، وقف الصديقان أمام «فرشة» جرائد، ترقد في دعة بجوار السور الحديدي الأخضر، مواجهة لجامع الفتح العملاق.

وبينما كان أحدهما يدرس في ذهنه أبعاد مشكلته، كان الآخر يرمق جريدة منذ زمان «عبد الناصر» – معاد طبعها تأكيدًا – وقد تصدرت صفحتها الأولى مانشيتات عريضة:

– «طرد سفيري فرنسا وبريطانيا على الفور».

– «سنقاتل. سنقاتل. سنقاتل».

لفتت نظره أغلفة كثيرة بوجوه أنثوية جميلة قبل أن يرى مجموعة من الكتب، ذات أغلفة بات يحفظ تصميمها جيدًا، وقرأ على غلاف أحدها: «حوار مع جِنّي مسلم».

طلب من صاحبه سيجارة، ودس يديه في جيبيه مبتسمًا في سخرية لافتًا نظر صاحبه إلى الكتب، سائلاً إياه عن اللغة التي أُجري بها الحوار.

تدخل بينهما صوت فجأة:

– هذه الأشياء تحدث فعلاً.

التفتا إليه. كان شابا عاديا يبدو أنه من الأقاليم، بذلك النسق المميز من الثياب، واللون الغامق، وذلك الخف الأخضر، الذي شمَّر عنه صاحبه طرفي بنطاله.

أكمل الشاب:

– صدِّقاني. إن هذه الأشياء تحدث فعلاً.

ولَمَّا لم يلقَ منهما رد فعل يُذكر، سوى نظرهما إليه، أكمل وهو يزدرد لعابه:

– لقد حدثت لنا حادثة من هذا النوع. عندما غرق ابن عمي في البحر.

– أين؟ في الإسكندرية؟

– لا. في بلدتي. المنصورة.

أيقن السائل أن الشاب يقصد «النيل».

شجع هذا السؤال الراوي، فقال مستعيداً ذكرى أيام قديمة:

– إن ابن عمي ماهر في السباحة أكثر مما يمكن أن تتخيلا. لقد نزل مع مجموعة من رفاقه إلى البحر. كانوا ثمانية. لم يأوِ أحد منهم إلى

فراشه أبدا بعد تلك الليلة، إلا واحدا منهم، رجع في مساء اليوم التالي. رجع مرتعشا إلى حضن أمه وكل ما على لسانه هو: أغرقونا. أغرقونا.

دشن الأهالي المذعورون فِرَقا للبحث عن أبنائهم المفقودين.

طوال ستة أيام وخمس ليالٍ يبحثون. ولم يتوصلوا إلى شيء. وفي الليلة السادسة حل الله عقدة لسانه فطفق يتكلم بلا هدى.

قال إنهم شعروا بدوامة كبيرة احتوتهم جميعا. لا، بل كانت لكل فرد منهم دوامة خاصة به. حاولوا أن يتملصوا. أن يَساعدوا بعضهم البعض. ولكنهم لم يفلحوا. غاصوا وغاصوا. وعندما أصبحت الظلمة تامة والصدور تسلم نفسها طواعية للمياه، برقت أمام كل واحد منهم عينان حمراوان، واستشعر كل منهم جسدا دافئا مشعرا يمسك به ويشده إلى الأسفل. والأهم من ذلك كله تنفس كل منهم بحرية، كما لو كانوا مضطجعين على «الزراعية».

تجمد الصديقان. أحدهما يبدو مسحورا تماما، والآخر كان عاقدا للحاجبين غير مصدق، إلا أن كليهما كان مشدودا إلى حديث الشاب، كأنما خيط خفي يربط بين آذانهما وفمه. تابع ذلك الأخير وقد اتسعت عيناه:

- وعندما غاصوا أكثر تألق قرار البحر فجأة كنور ألف حفلة من حفلات البهوات الراقصة، تحلق حولهم مئات من الجن — والعياذ بالله — وشعروا كلهم بأنهم قد ماتوا مئات المرات على الأقل، وهم يُقتادون إلى قعر البحر.

لم يدرِ الفتى هل لديهم أفواه أم لا. على الرغم من هذا الضوء الساطع كله، لكنه سمع جيدًا أنهم يقولون إن أصحابه منهم. منهم هم. وقد آن الأوان لِلَمِّ الشمل.

وقالوا له إنه هو - وهو بالذات - ليس منهم؛ لذا يتعين عليه أن يذهب.

وقبل أن يرد. وقبل أن يردوا جميعا. أحسوا بالمياه تشرب من رئاتهم. رأوا الفقاعات تتصاعد منهم لأول مرة منذ بداية هذه اللحظات المخيفة. أظلمت الدنيا أيضا فجأة.

ولما فتح عينيه، وجد نفسه ملقى على شاطئ البحر. الشمس في ظهره والطين في فمه. جرى إلى البيت مثل المجنون. استقر وحكى حكايته هذه ثم اختفى - هو أيضا - فجأة.

يقولون في البلد: إن الجن — أعوذ بالله — قد اختطفوه ثانية. يقول

البعض: إنه أصبح ملازما لشاطئ البحر مختفيا عن الأنظار. ويقول آخرون: إنه قد هاجر إلى هنا إلى مصر، يهيم في الشوارع والميادين قاصًا قصته.

قاطعه مقطب الحاجبين قائلا في لهجة غريبة، تأرجحت بين الشك والتصديق:

– ربما يكون الفتى قد جُن. أصابته لوثة ما.

نظر إليه الشاب مجيبًا في بطء:

– ربما حقا، لكن الفتى لم يختفِ إلا بعد الليلة السادسة. هل تدرون ما حدث في الليلة السابعة؟!

لقد طَفَت جثث الأصدقاء السبعة على سطح الماء. والغريب أن كل جثة انتُزعت من قدمها فردة حذائها اليمنى.

والأغرب أن كل الجثث كانت نظيفة سوية. بلا أي انتفاخ، كأنهم قد ماتوا توًا.

ثم هز كتفيه معيدا:

– صدقاني. إن هذه الأشياء تحدث. السلام عليكم.

أوصل المتشكك صديقه إلى مكان «ميكروباصه»، ثم وضع يديه في جيبيه، ماضيًا في طريق عودته من شارع رمسيس.

وبينما كانت سيجارته ترقد بين شفتيه في دعة فكر بأن هناك من الأشياء ما لا يستحب تصديقه.

سينما

كان يوما عاديا آخر.

صحا من نومه. نظر إلى جسده الملفوف بالأغطية كحية «أبوا» عملاقة بعينين مرهقتين، ثم رفعهما إلى السقف القديم، الذي طالما تخيله لوحة عملاقة شُكلت من بقايا الطلاء المتهالك، مفردة مناظر غريبة لا يفهمها إلا هو فقط.

شعرت قدماه ببرودة الجو فور مغادرة الغطاء الدافئ. تذكر أيام المدرسة، وكابوس استيقاظه من تحت الغطاء، ليواجه الماء البارد، والهواء البارد، والمدرسين الباردين.

وقف أمام المرآة لمدة ربع الساعة كعادته دائما. يظل يدقق في وجهه الوسيم مرة، والقبيح مرات. كأنما سينبت له أنف ثانٍ أو كأن أيادي خفية ستسرق فمه في يوم من الأيام. لا يدري لِمَ يفعل ذلك. واستمتع أكثر بوجود ذلك السؤال الذي لا يستطيع إجابته.

الكل الآن في الخارج. إنه وحده تماما. وكالفتى في إعلان نسكافيه، كان يقبع في البلكونة الضيقة، ممسكا بـ«مج» الشاي، إنها الساعة العاشرة صباحا وهو في الحادية والعشرين من عمره.

وجه الاختلاف بينه وبين الفتى في الإعلان أنه يرتدي منامة فوق الفانلة الحمالات، داسًّا سيجارة في فمه، يمتصها بشراهة تليق بـ«دراكولا» نفسه.

نظر إلى بعض النسوة اللاتي يمشين بعرض وطول الشارع أو يدخلن السوبر ماركت المواجه لبنايته، تحسس ذقنه نصف النابتة – التي لا يحتاج إلى معجون حلاقة لإزالتها أو موس جديد – وفكر في تلك الإغماءة اليومية التي يمر بها، والتي يسمونها النوم.

هذا يحدث كل مساء. يضع رأسه على الوسادة، ولا يكاد يغلق النور «السهاري» من جوار فراشه حتى تصعد الوطاويط من كل مكان بالحجرة.

يحس فجأة بأن الهواء قد حمل عصاه ورحل، ولم يبقَ في الغرفة شيء ليستنشقه إلا الوطاويط.

إنها تضربه بأجنحتها اللزجة، ويشم رائحتها المليئة بالحزن والمرارة. ويعرق. ويعرق. ويعرق. ثم يبتهل إلى سلطان النوم مئات المرات. ويقدم له رئتيه المشويتين من دخان السجائر قربانًا. لعله يرضى.

هذا يحدث كل مساء.

تنفد سجائره، يندس تحت الغطاء في وضع جنيني، ليستمتع باثنتي عشرة ساعة من الراحة والهدوء المشبعين برائحة جسده الغبرة المتربة.

دائما ما كانت أمه تتعجب من أنه يغطي رأسه بكامله وتقول له دائما إنه سيختنق. ولكنه تعوَّد ألا يرد عليها.

قال له أخوه في مرة إنه يتكلم وهو نائم، سأل أمه في يوم من الأيام. هزت كتفيها وأجابت:

– كل عائلة أبيك بها العادة نفسها.

– وماذا أقول؟!

تنشغل في ترتيب لا شيء فوق مائدة غير موجودة، تطوح بعينيها بعيدا وتجيب:

– لا شيء. إنك تهذي فحسب.

انتابه خوف مفاجئ. ماذا يكون قد قال؟ هناك دولاب طويل عريض من التذكارات التي لا يود أبدًا أن يعرضها على أحد. وهناك تلك الوقائع التي لا يود أحد أبدًا في المنزل أن يتذكرها.

الساعة الثانية والنصف. وهو في الحادية والعشرين من عمره.

كان المحاضر الممل لا يزال يكرر كلماته كمسجل خرب تصفح الوجه سريعا، وكأنه يتصفح مجلة موضة أجنبية ويجد لسانه يتحرك سريعًا باتجاه زملائه، إنه لا يدري ما الأمر، بمجرد نزع وجهه من المرآة وخروجه من باب غرفة نومه، يحس بساري علم لسانه ينتصب.

يستمر في ثرثرته هذه طوال اليوم، وها هو الآن جالس على سلالم الكلية، يتكلم ويتكلم، يقلب في وجهه كملعقة في كوب شاي، يرقص ويتشقلب كالشمبانزي الذي يكاد يتجمد، تفغر أفواه أصدقائه، وتضيق عيونهم وربما تدمع، بل ويكاد بعضهم يسقط على الأرض. ولكنه لا يسمع شيئا.

يتابع تصفح الوجوه والأجساد وقصات الشعر. يملك حنينا معينا لتلك الفتاة القابعة هناك، ذات الشعر الأسود الناعم المقصوص كشعر «ديمي مور» في فيلم «الشبح»، لها نفس العينين الذكيتين، واقفة كفرس مرحة.

– على فكرة، لقد اتصلت بك أمس.

نقل نظره فورا إلى تلك الواقفة بجواره. أجاب بابتسامة لم تمل من وجهه:

- لم يخبرني أحد.

تأمل وجهها لحظة. هي جميلة. هادئة في الغالب. لطالما تبادلا اتصالات كثيرة، وبمدد تصل أحيانا إلى الساعتين. لم يملّا ذلك خلال أربع سنوات كاملة. لم يعرف يوما لم يتصل بها بشكل يكاد يكون دوريا. لقد استقبل منها ما يشبه الإشارات في كثير من الأوقات.

لِمَ لا يخبرها أنه قد أصبح غبيا عاطفيا منذ أن دخل هذه الجامعة؟

لِمَ لا يخبرها أنه يكاد يموت غضبا إذا لّمحت أمه إلى وجود علاقة ما بينهما؟

عدد الأسئلة غير المجاب عنها كثير في حياته. المفروض أن يضايقه هذا، ولكنه - وبالتأكيد - يسعده. وعندما يسأل نفسه: لماذا؟ يسعد أكثر. ها هو سؤال جديد.

بدا الجو محايدا بسمائه البيضاء، التي منحته شعورا باختفاء قيمة الأشياء، كان جالسا فوق مقعد في كافيتيريا بجوار الجامعة، لا يزال يثرثر. ويضحك. ويأكل. ويدخن.

الساعة الآن الرابعة والنصف، وهو في الحادية والعشرين من العمر. تساءلِ في سره عن ذلك السر الإلهي في خلقه مصريا بالذات. وهل

هناك أمل في أن يُخلق من جديد فرنسيًا أو إنجليزيا؟

استمر في سلسلة أفكاره. ما الذي كان محل ذلك المطعم الفاخر في ميدان التحرير؟

إنه لا يتذكر. وهل هذا سبب لعدم إرسال الله أي عربة مسرعة الآن، لتقتلعه وهو يعبر الشارع؟

كم هي جميلة شوارع وسط البلد.

شعر بتلك اللذة وهو يسير ليلا في الشوارع اللامعة بفعل الأمطار. حقا. تكون شوارع وسط البلد أكثر جمالاً في الفجر أو في الليل.

لقد فتحت عينيها في دهشة عندما اتصل بها في التاسعة صباحا، وأخبرها أنه دلف إلى المنزل في التو واللحظة.

كان يقضي الليل مع الأصدقاء على القهوة، أو بصحبة صديق مقرب. ليذرعوا شوارع وسط البلد ذهابا وإيابا. الليل عجوز طيب، حتى إن امتلأ برجال المباحث.

اتخذ شارع قصر النيل، ثم إلى ميدان طلعت حرب، اتجه إلى مكتبة مدبولي ونظر في فاتريناتها قليلا. واصل السير في شارع الأنتكخانة حتى دلف يمينا إلى شامبليون، تابع ثعبان الماء في الطرقات حتى وصل إلى

سينما أوديون. قطع تذكرة وعاد ليرمق الثعبان. ترى ماذا سيكون شعور النمل إزاءه؟ هل سيعتقدونه نهر النيل؟!

كيف سيرون الحصى، وتلك الأرض السوداء، وذلك الرصيف الذي تقع من فوقه المياه؟ هل سيخطر ببالهم أنه شلال كبير؟ بل كيف سينظرون إليه؟ كديناصور؟ كعملاق متناهي القدرة؟ هل يدركون أنه إذا قُتل واحد منهم الآن تحت حذائه الضخم سيكون ذلك بلا سبب. بلا ترتيب مسبق؟ ترى هل يوجد من بينهم العلماء الذين سيؤكدون أن النمل هو أكثر مخلوقات الله تطورًا على الأرض؟

حان موعد دخول الحفلة. أصيب بخيبة أمل كبرى عندما اكتشف أن السينما لم تورد إعلانات الأفلام القادمة قبل العرض الرئيسي، تذكر أنها حفلة الساعة الثانية عشرة والنصف وأنه في الحادية والعشرين من عمره. بدأ الفيلم. نزلت التترات. تحرك البطل في الشوارع المبلولة المليئة بمياه الأمطار. يكلم نفسه بصوت مسموع. والناس تنظر إليه من طرف خفي وهو منفصل عن ذلك كله تماما.

إنه يذهب إلى الجامعة. ليضحك ويثرثر بلا توقف. وبانعطافة درامية.

تحول الفيلم إلى الإثارة. البطل يطلق النيران، ويلكم بكل قسوة، ويفجر مبنى العصابة الإرهابية. ثم تحول إلى زيوس الذي هبط مطرا ذهبيا أمام تلك اليونانية الحسناء. إنه في فيلم رومانسي، حيث كل البنات يهمنَ حبا به. فجأة وجد البطل نفسه داخل عربة «فيراري» مسرعة، يقودها وهو أعمى، وبجواره شاب يكاد يموت ذعرًا، وجد نفسه ذا صوت أجش مميز وله خبرة سابقة في رقص التانجو على الرغم من عماه. تحول البطل إلى رجل يحمل صخرة إلى أعلى الجبل لتنحدر، كاشفة عن جسده المعلق بأعلى؛ حيث تتناهب النسور أعضاءه المتجددة باستمرار، غلاف كتاب يحتل اسمه فيه المساحة البارزة بماء الذهب، وفوقها الحائز جائزة نوبل للآداب. ينزل من سلالم «كان» وفلاشات الكاميرات تكاد تعمى عيناه. يقف في شرفة قصر عابدين ليلغي الرقابة تماما. الجماهير تهتف له وواحد يقذف له بتفاحة.

راقب هذا كله والعرق لا يكف عن الذوبان فوق صفحة وجهه. أنفاسه أصبحت أكثر لهاثا.

يضرب فوق صفحة الماء لتنقسم، يعلن حالة الحرب على سكان كوكب لا يعلم اسمه من على السفينة «ستار تراك».

يتحرك إلى صورة في بوستر لـ«جيمس بوند». يخرج من البوستر

تاركا فتاة الجامعة وراءه. يسوى بدلته الاسموكنج وهو يخطو داخل تلك الغرفة الواسعة. كانت تلك الفتاة بشعر «ديمي مور» تنتظره هناك. فجأة، تعريا تماما. حتى من جلدهما. رأى جسد الإنسان كله بلا جلد. العضلات والعظام والغضاريف. احتضن الفتاة وهما جالسان على الأريكة الوثيرة. انحدرا بجسديهما حتى خرجا من الكادر تماما، تاركين ضربة من ريشة ثقيلة من الدماء في ظهر الأريكة.

ظهرت كلمة النهاية. أضيئت الأنوار لتكشف أن كل الجالسين بجواره من الأشباح والشياطين والكائنات الغريبة. والوطاويط تحلق في فضاء السينما.

القطة ذات الشعر الأسود

كانت مشاجرة كبيرة بين السيدة «كريمة» و«لطفية»، خادمة الأستاذ «مصطفى» الساكن في الطابق العلوي. دخلت «كريمة» لتحكي الحكاية وهي في غاية الاستياء لأخيها «راشد»، الذي كان يزور أمه، التي تعيش مع ابنتها الوحيدة في شقة العائلة التي كانت.

«لطفية» الأثيمة لم تكتفِ بـ«تسريب» القطة «لالو» البيضاء ذات الدم الخفيف، لكنها «سربت» القطة «سوسو» الرمادية ذات المزاج العصبي. بنت الـ قاسية القلب. أكدت السيدة «كريمة» أنها ستبحث عن «سوسو» مثلما بحثت كثيرًا عن «لالو».

بعد يومين، قابلت أخاها في شارع «المواردي» صدفة، حيته ثم تذكرت فكادت تبكي. بنت ستين في سبعين «سربت» آخر قطط البيت «بوسي» المشمشية الصبورة نكاية بها. ربت أخوها على كتفها بينما هي تسأله في حيرة عن سبب تلك القسوة في القلوب.

أيقظته امرأته في اليوم نفسه مساءً. قالت أخته. رفع السماعة متوجسا، ولكن رنة البهجة في صوت السيدة «كريمة» طمأنته، وهي تهلل قائلة إن «بوسي» لا تزال موجودة في البيت.



الجد

لم يدرِ «أحمد» الصغير ما سر هذه الضجة كلها في منزله الواسع. راقب حركات أمه وإخوته المحمومة في أرجاء المنزل، إلى أن أتاه من يقول في حزم: يجب أن تستحم. الآن!

وبينما انهمكت أمه في تنظيف ظهره المتعب بأنهار من العرق والتراب، كان أبوه يسوي منديل عنقه في عناية.

نظر الأب إلى المرآة. تفحص تاريخا ألقى قفازيه فوق وجهه، وعنون شعره بإمضاء من حبر أبيض.

دس أخوه قدميه في حذائه، جلس فوق سريره، متأملا البلاط المزركش بأشكال لم تعد سنوات التسعينات تعرفها، سأل نفسه في حيرة: ترى ما شكل جدي؟! فكرت الأم وهي تصب الماء الساخن فوق رأسه عن الاستقبال المتوقع من أبيها، الذي لم تره منذ تزوجت. تحرك الأب إلى الردهة الواسعة. وتأمل أشعة نور الله التي تمرق كالغزال الآرن من نوافذ الشقة المتسعة، لم يمنع نفسه من الشعور برهبة ما.

هذه أول مرة يقابل حماه، أول مرة في حياته، لم يقابله. تذكر أيامًا طويلة السوالف، عندما قال في حيرة:

- ولكن، أين الأستاذ زكريا؟!

أشاحت حماته برأسها، وقالت باقتضاب:

- سافر.

لقد كان يعلم أنهما مطلقان، لكنه لم يتخيل فكرة أن يغيب الأب عن فرح ابنته الكبرى، حتى لو كان مسافرا. نشَّفت «زينب» جسد صغيرها، وسرحت في لون القيشاني الأزرق، كلون عيني حماتها، التي رمقتها في غيظ عندما دخلت بيت زوجيتها لأول مرة. كان ذنب «زينب» الوحيد هو أنها من «السيدة عائشة» وأن شقة أمها لا تساوي ثلاث غرف من شقة عائلة زوجها.

أسلم «شريف» رأسه لأبيه، الذي انهمك في تصفيف شعره، متجنبًا أن يصدر أي آهة ألم واحدة من عنفوان اليدين.

تأمل الأب شعر ابنه الأسود الغزير، الذي فكَّره بشعر زوجته، عندما رآها لأول مرة في ميدان السيدة. كان شعرها جميلا يسلم نفسه إلى أي نسمة هواء تمر بالميدان الواسع، يلاعبها، يشاكسها، يتلوى بمهارة قبل أن يستقر على جبين أبيض واسع، تزينه عينان نجلاوان.

تأكد ساعتها أن هذه البنت لن تمر في حياته ككل أيام الجُمع.

راقبها من بعيد إلى أن صعدت إلى بناية يعرفها جيدا.

لعب «أحمد» بخصلات شعر أخته، التي كانت منهمكة في إلباسه شورته الأبيض، وقميصه الأبيض، وجوربه الأبيض، ورابطة عنقه الفراشية الحمراء. وبجوارها كانت «زينب».

رمقت الأم ابنها، الذي امتلك عيني الثعلب عن أبيه، فكرت ثانية. لا. هو لم يكتسب ثعلبية النظرات بعدُ. لكن رسمة عينيه هي رسمة ثعالب لا شك.

مثل هاتين العينين، منذ أكثر من عشرين عاما، قد تركزتا على وجهها (وجسدها بتخابث قُصد اكتشافه) من رجل أنيق جريء، تدمته إليها صديقتها قائلة:

— «عمر»، صديق أخي.

— تشرفنا.

لم تنسَ أبدا نظرة عينيه، كأنه صياد يسعى إلى فريسته، أحست أنه كان يتتبعها منذ زمن طويل. ربما قبل أن تولد. من الغريب أنها لم تلمحه أبدا من قبل.

لكل مجتهد نصيب، عبارة لطالما آمن بها الأب، لكنها فشلت مع

«زينب» أيّما فشل. إلى أن تأكد من أن نصيبه منها لن يتأتى إلا بالزواج. تحرك بنية أن يستفهم عن سبب تأخرهم، لكنه توقف فجأة أمام صورة أبيه، نظر في الوجه النبيل، الذي يحتويه برواز بيضاوي، يفرق خلفية الصورة عن بقية ورق تحميضها، كعادة كل الصور القديمة. تأمل شارب أبيه، ورابطة عنقه، وطابع الحسن في ذقنه، وشعره الناعم المصفف بعناية، وعينيه العميقتين، ووجد نفسه يقول بلا معنى:

– «عمر». «عمر». ما الذي فعلته بنفسك؟

من الصحيح أنه استهتر لدرجة أن أباه نعته مرة بـ«صديق الرعاع»، إلا أن كل شيء تغير أيضًا. لم ينم سنوات شبابه في عز أبيه، بل في عز أمه، التي وفرت لها بنايتها الخاصة – التي ورثتها عن أبيها– منزلا متسعا، ضم فيه ابنًا سوقي النزعة وابنة حالمة وأبًا مهزومًا.

ما ذنبه هو؟! ابن ذكر وحيد أتى لرجل في خريف العمر، بالغ في تدليله إلى درجة الإفساد، الذي ساعده على فهم حقيقة جغرافية بالغة الأهمية: إن موقع قصرهم السابق في المنيرة، وشقتهم الحالية في باب اللوق، قريب جدًّا من حواري السيدة وشوارع عابدين الخلفية، ومن مقاهي شارع «خيرت» التي تستريح على كراسيها الأماني والأحلام والغضب والدموع.

كـان «أحمـد» الـصغير يبكـي، إلى درجـة دفعـت أبيـه للـهرع إلى مكانـه. القـصة واضـحة. حـاول الجـري وراء «بوسـي» – القطـة المدللـة السمينـة – فعاجلته أخته بعقاب ناجع لكيلا يفسد طاقمه الأنيق.

نظرة واحدة من أبيه وكفّ نهائيًّا عن البكاء. بلـع دموعـه بـصمت مقهور. أشار إلى ابنته. نظر في عينيها قائلا:

– «صافى». لا تكوني قاسية على أخيك.

هزت «صافى» رأسها بنعم بآلية، ثم مضت في طريقها إلى غرفتها، لتحضر شيئا ما، أصرت الضرورة على إحضاره، والواقـع أن المتتبـع لـسير محادثات «عمر» مع أبنائه سيجد أن كلها انتهـت بمـضي أبنائـه للـسبب نفسه.

لا تجـرؤ «صـافي» أن تقـول لا، حتـى لـو كانـت تقولهـا دائمـا في أعماقها، حتى لـو كانـت تـسر إلى نفسها بأنهـا الآن في انتظـار الـشهادة الجامعية التي ستأتي بعـد ثـلاث سـنوات، الـشهادة الجامعيـة الـتي لم يحصل عليها أبوها علـى الـرغم مـن مظهـره الأسطوري الـذي يبـدو أنـه استمرأه.

شعرت بندم أقوى من الأيام، كانـت تنـدم دائما كلمـا قالـت ذلـك

لنفسها. رفعت سماعة التليفون لتخبر «خالد» أنها لن تكون في المنزل طوال النهار.

انهمكت «زينب» في ارتداء ملابسها، تحاول أن تفعل ذلك دون تفكير، تحاول أن تجعل مراسم هذا اليوم عادية ككل أيام حياتها.

تهالكت على كرسي «التسريحة». لا تستطيع. نفذت صورة إلى رأسها وهو يداعبها هي وأختها. ثم صورته وصوته يحتل الدنيا كلها «طالق. طالَق. طالق». وعندما سكت صوته تكلم الباب الذي صُفق مرة واحدة. وبغير رجعة.

تكورت كقط، وأخذت تبكي. بعد قليل أتتها أختها، التي عزت عليها قطرات من الماس تهدر إلى الأرض، ربتت على رأسها، قبل أن تسفح دماء عينيها هي الأخرى. وبسرعة، كان الأب خارج المجموعة الشمسية كلها، وبسرعة جدا، أتت أمها برجل طويل عريض، ليشاركها فراشها، ولينجب أبناءه الأربعة، الذين شاركوا «زينب» وأختها الفراش أيضا.

جفلت فجأة، عندما تعرفت صورة زوجها في المرآة أمامها وابتسامة ما تظهر فوق شفتيه. التفتت إليه بحدة:

- ما الذي يضحكك هكذا؟!

اتسعت ابتسامة «عمر» وهو ينظر إلى فتحة ردائها التي اتسع منظورها، لإشاحة زوجته الغجرية، رأى منابت الصدر الذي يعرفه منذ عشرين عاما. ثم قال بنبرة هادئة:

- لقد ظهر عليك الألم يا «زينب».

وكأنه طعنها في قلبها، انقلبت ملامحها، وقامت في عصبية لتحضر شيئا ما.

أمسكها من رسغها، نظر في عينيها فأخفضتهما. أكمل:

- لقد كنت دائما مصدرا للمشاكل مع أمي. مع الجيران. مع نفسي. مع الدنيا كلها. ولكن لم يظهر عليك الألم مرة واحدة يا «زينب». مرة واحدة. كنتِ دائما شرسة، وحادة، ومتعجرفة، امرأة تتفجر أنوثة واعتدادا بآراء هي في حقيقتها غبية.

ربما كان من الطبيعي أن تنفجر في وجهه، لكن «زينب» قد فهمت من هو رجلها بالضبط: صراحة بلا حدود. مكر بلا حدود. أرستقراطي بهوس. شعبي بجنون. عصبي. حليم. مليء بالثقة كالطفل الأهوج. هذا كله وأكثر هو «عمر». «عمر» الذي أحبته كحب الأرض للربيع، فكل ما

يقوله، بما يحمل من شبهات غرابة وتعالٍ وقسوة، لا يحمل إلا حبا صافيا. لا يجعله يعدل من ألفاظه وأحكامه، التي أقرت في داخلها بأن أكثرها صحيح.

- إذا كنتِ لا تريدين الذهاب فأنا موافق.

رفعت رأسها إليه، ها هو حبل من أحبال النجاة يُلقَى. وجه زوجها الجميل يقترب منها، وتشم أنفاسه وهو يقول:

- فقط. لا تتألمي.

- لا. لا. أنا بخير. وسنذهب، لا بد أن يرى الأولاد جدهم.

عرف من اختلاجة يدها في راحته أنها تكذب. إنها تريد رؤية والدها أكثر من أي شخص في الدنيا، وأدركت من نظرة عينيه بقية من خوف في داخله.

نادت «صافي» عليهما من الخارج، دس في يد زوجته كل حرارة جسده وهو يقول لها:

- لحظة واحدة وألحقكم.

ترجّلت العائلة من عربة المترو، مضوا إلى خارج محطة المعادي، استوقف «عمر» تاكسي، سرعان ما شحنهم إلى المكان الموعود.

عزم عليه «عمر» بسيجارة من علبة أجنبية، رفض السائق ضاحكا وهو يربت على علبته الكليوباترا.

نظر «أحمد» إلى أمه في بلاهة، التي ارتسمت على جانب فمها ابتسامة جاهدت أن تخفيها. لقد كانت تعلم أن رفض السائق أراح زوجها، الذي حشا علبة أجنبية فارغة بسبع من السجائر «الفرط» — من النوع نفسه طبعا – بغرض الدفاع عن النفس.

«عمر» ابن ناس، هي تعلم ذلك جيدا، أصبح فقيرا لكل جماقاته، التي أدت به يوما إلى بيع نصيبه من بيت أمه، ولكن ستر الله على البيت بأخته، التي اشترت النصيب المباع من المشتري ليعود بيتا واحدا، وجهت مالكته جزءا من إيراده لمساعدة أخيها البائس.

داعبت «صافي» أخاها الآخر، الذي ورث شعر أمها الغزير، وورث الصمت الموحي من أبيه.

نزلوا على مقربة من العنوان، خاصة عندما لاحظ الأب سوقا للخضر والفاكهة، ترجلوا إلى أحد البائعين، وبدا أن «زينب» ملكة والسوق قاعة عرشها، فأخذت تشتري وتشتري. هي ليست أقل منهم. لا بد أن تُظهر حياتها لهم وكأنها ميسرة وسهلة.

أخذ البائع في وزن الفاكهة، وهمت «زينب» أن تطلب طلبا آخر، إلا أنها توقفت، وأحست بتيار فظيع من الذنب. ما غلطة زوجها في هذا كله؟

هي تكاد تصرف ما تبقى بجيبه من مرتب الشهر، بعد أن اشتروا الملابس والأحذية الجديدة.

– 4 كيلو من المانجو لو سمحت.

نظرت إليه في حدة، إنه لم يشترِ حتى علبة سجائر لنفسه. أثقل «عمر» يديه ويدي «صافي» بأكياس الفاكهة البنية – التي خُيل لـ«شريف» و«أحمد» أنها مكرمشة، بالإضافة إلى هلعهما من الكمية التي لم يروها قبلاً – وأمسك «زينب» من يدها مسكة تعرفها جيدا، ومال عليها قائلا في حسم وببطء:

– لا بد أن تكوني ملكة اليوم.

صمتت تماما، وأكملوا مشيهم الحثيث، بينما قال «أحمد» في براءة:

– ماما. ماما. هذا الكيس بحاجة إلى الكيّ.

ضحكوا جميعا، لكن هذا الضحك لم يشفِ غضبا استقر في أعماق

«زينب». ما الذي يفعله؟ إنها لم تكن دوما طيبة معه، فلِمَ يكون طيبا معها الآن، وإلى هذا الحد؟ و. وقعت عيناها على جانب وجهه، نظر إليها باسما. أنبت نفسها فورا أنه يشرفها. يحاول أن يظهرها بمظهر الهانم. لا تنسى كيف أجلسها على مائدة فاخرة، وناولها الشوكة والسكين وهي تقول له في استنكار:

- آكل بالشوكة في اليد اليسرى؟! هذا حرام يا أستاذ!

قطع صوت «شريف» - الذي لم تسمعه منذ أول اليوم - أفكارها:

- ماما. لقد وصلنا.

نظرت «صافي» أمامها. وجدت فيلا صغيرة، يزدان سورها الصغير بالورود، ويتوسطه باب حديدي بدا بالغ الأناقة بلونه الأسود وحلياته الذهبية.

أمكنها تمييز ثلاث درجات بعد الباب، ثم ممر يقود إلى الباب الداخلي للفيلا. سأل «أحمد»:

- هذا بيت جدي؟

تبعه «شريف»:

- كيف يبدو جدي؟

وجدت «زينب» نفسها تتجه غريزيا صوب جسد زوجها. مطّ شفتيه وقال وصوته يحمل رنة ملولا:

- جميل. جميل هذا المنزل.

تقدم إلى الباب. ورن الجرس.. وسرعان ما ظهرت امرأتان تعرفت «زينب» فيهما فورا على «رجاء» أختها الشقيقة، قالت لها عندما فرغت من احتضانها وهي تشير إلى المرأة بجوارها:

- «منى». أختنا.

أحست «منى» بشيء من الإحراج، عندما سلمت على أختها نصف الشقيقة، التي أظهرت إحجاما ملحوظا عندما همت بمعانقتها. عربد الخوف داخل جسد «زينب» وسادها ترقب كما ليلة عرسها، التصقت بجسد «عمر» وأحست بدقات قلبه في أذنها.

قاد «عمر» عائلته إلى الداخل في ثقة، بدت ظاهريا عظيمة جدا، ولكن حقيقتها فضول بلا حدود، وشيء من الرهبة، بالإضافة إلى فضيلته الأولى: الاستهتار واللامبالاة. مزيج عجيب لا يجتمع إلا في هذا الشخص.

هكذا فكرت «صافي» وهي ترمق أباها، ذلك الأب نفسه الذي كان يجلسها على ساقيه في ليالي الشتاء الباردة، فيكون شمسها وقمرها معًا.

وأخيرا، دخلوا إلى الصالة الكبيرة. ورأوا ذلك الشيخ الجالس في عباءة فاخرة، في صدر الردهة.

تأمل «شريف» وجهه المستطيل، وشعره الأبيض المصفف بعناية، وابتسامة الطيبة على وجهه. إنه جدي!

ارتعشت «زينب». حدقت في الهيكل المنتصب أمامها بلا جدوى، لا. ليس هو. أبوها رجل طويل عريض أسود الشعر ذو شارب كثيف. هذا الرجل من دون شارب.

أخيرا فتح فمه قائلا:

– أهلا بكِ يا «زينب» أنت وعائلتك.

عرفته من نبرات الصوت العاتي، الذي يشبه فخا مسننا أطبق على قدم أحد الحيوانات البائسة، ورويدا رويدا تعرفت على أنفه وفمه، وتلك اللمعة التي لا تزال في عينيه. نظرت «صافي» إلى أمها بتساؤل. المفترض أن تكون فرحة الآن ولكنها واقفة. هكذا متسمرة، مثل الطود الحجري.

أخيرا اتجهت إلى والدها، الذي قبلها قبلتين، وأبعدها عنه بيدين أطبقتا على كتفيها، وقال برقّة:

- لا يهم يا ابنتي. الزمن يداوي كل شيء.

ثم مال برأسه ناظرا إلى أبنائها الثلاثة وقال في دفء:

- أحفادي. أولاد «زينب». تعالوا إلى جدكم.

وفتح لهم ذراعيه. راقب «عمر» الأولاد وهم يقتربون منه بأدب مشوب بالحذر ليضمهم إليه بحركة مرتعشة دافئة، وكأنه يحتضن تماثيل فخارية قابلة للكسر. بدأ جليد توجسهم يذوب وهم يختلسون النظر إلى أبيهم، الذي نظر إليهم في شيء من الغيرة. لم يُكتب لأبيه أبدا أن يرى أحفاده.

- لا بد أنك «عمر».

ابتسم ابتسامة بعرض النيل وهو يجيب:

- نعم يا حماي.

تفرس فيه العجوز، وضيَّق من عينيه وهو يكمل ببطء:

- أهلا بك. أهلا بك. لقد كنت أود أن أتعرف على أسرتي الصغيرة هنا منذ زمن، لكن السيدة ابنتي لم توافق.

صمتت «زينب» تماما بينما أكمل أبوها:

صدقني يا بني، سبع سنوات كاملة وأنا أطلب رؤيتكم وهي

ترفض.

- صادق يا حاج «زكريا». صادق.

أشار العجوز إلى كرسي بجواره، وقال بحميمية:

- تفضل. اجلس بجواري.

- شكرا.

أحست «زينب» بالغيظ. عظيم جدا. هو يحضرها هنا كي يؤنبها. فكرها بحماتها التي كانت لا تُحتمل، حتى تركت لها المنزل ولم تعد إلا بعد وفاتها.

جلست «صافي» على كرسيها باعتداد. تجاهلت نظرة افتتان ظهرت في عيني أحد الشبان الجالسين في الردهة الواسعة. بادرت «ثريا» خالتها الأخرى:

- «كريم». ابني.

ردت باقتضاب، ابتسامتها حملت اعتزازا لا ينتهي بأنها هي التي ورثت أصل أبيها التركي في كل شيء. دخلت «منى» بالعصير إلى الجميع، تناول «أحمد» كوبه في فرح، تؤنبه عليه والدته عادة. ذاب «شريف» بين أولاد خاله وخالته الذين يشاركوه فرحة التعارف الأولى.

فقط «صافي» كانت جالسة؛ لأنها تعرفت على بعض من العائلة لدى زيارتها الأولى للمكان، التي أسفرت عن صفعة تردد صداها في البيت كله، وأمها تصرخ في جنون:

– ما الذي جعلك تذهبين إلى هناك؟

مدت ساقيها قليلا، ها قد مرت سنة وتغيرت الأحوال كلها. سأل الدكتور «محمود» الأب:

– علمنا أنك تعمل بالتليفزيون.

– هذا صحيح.

– لكن هل تعمل في مجال دراستك؟!

كأنها خنجر نفذ إلى قلبه بلا رحمة. أدار عينيه في الأثاث الفاخر باحثا عن مهرب. دوامات من الإحباط دارت في حلقه. أجاب:

– لا. في الحقيقة أنا حاصل على ليسانس الآداب.

نظر إلى الدكتور «محمود»، ومهندس البترول «مصطفى»، و«شكري» المدير المالي. أحس بالانهزام.

كان الجد يتفحصه مليا، يبدو له شخصا جديرا بالثقة، علامات النعيم القديم على وجهه وملابسه لا يمكن أن يخطئها، ثم دار بنظره

على أحفاده. يا الله، كم من جمال.

نزل «أحمد» تحت سرير جده، كانوا يلعبون «الاستغماية». أحس برائحة غريبة عن روائح البيت القديم.

- غير ممكن!

صرخ بها الجد بغير تصديق، قطع «عمر» جملته ونظر إليه في اندهاش.

تابع الجد:

- أنت ابن «عبد القادر» بك؟!

- نعم.

دارت عينا العجوز في محجريهما وتابع:

- الذي كان قصره في المنيرة؟

- نعم.

صمت العجوز مبهوتا، كذلك كل الجالسين في الردهة، بينما ضيّق «عمر» ما بين حاجبيه في تساؤل حذر، نبض قلب «زينب» في شعور لم تحدد كنهه بالضبط. تعلقت عينا «صافي» بشفتي العجوز اللتين تحركتا بغير ضابط في البداية، قبل أن تستقرا على جملة:

- غير ممكن.

أحس «عمر» بالغضب. ما هذه الألاعيب الغريبة؟ هل انتسابه إلى أبيه يعتبر حراما؟ وما شأنه هو؟ أليس هو من ترك ابنته؟! ماذا يهمه في نسب زوجها؟ وما سر نفيه القاطع هذا؟! هل يريد أن يصمه بقلة الأصل مثلما أشعره بفقره؟!

امتدت يداه إلى حافظته، وأخرج منها صورته هو وأبيه. كان طفلا وديعا ينظر إلى العدسة في خُيلاء. امتدت يده بها إلى الجد قائلا في حسم:

- بل ممكن.

أحس «شريف» بتوتر في الجو. لحظ وجه الجد - الذي لطالما تفحصه طوال الجلسة - وهو يختلج. لمحت «زينب» دموعا ما في عيني أبيها. الله. ماذا جرى؟!

نظر إليه «عمر» مبهوتا. تحركت أحاسيس غريبة من الدهشة والترقب والخوف في نفوس أبناء «زكريا»، ظهر «أحمد» في تلك اللحظة وهو يصيح في سعادة:

- هييه. أنا الملك!

ماتت ضحكته على أطراف عينيه المدهوشتين بجمود كل

الجالسين. كاد يبكي في اللحظة التالية لولا وجود أبيه.

أمسك الجد بيد الأب المتراخية جانبًا في غير فهم، وتابع في تأثر:

– ألا تذكرني؟ أنا عم زكريا.

انهار من الذكرى، تفجرت في ذهن عمر، وهو يعيش نهارات وليالي بلا نهاية، الحشائش الخضراء، أعمدة القصر ووجوهه المنحوتة الغريبة، نفير العربة السوداء وذلك الوجه الحنون المظلل بقبعته الأنيقة.

نظر «عمر» إلى زوجته، وهو ما زال في أجواء الحلم، جماله، لمعته، والانتصار والانكسار في عينيها.



هناك عند المنعطف

صعدت السلم بتؤدة. أنينه الخشبي العتيق ارتطم بجدران المنزل وارتد لي مانحا شعورا بالألفة. أدرت المفتاح في الباب. الطرقة الطويلة وبجوارها البوفيه الكبير. ألقيت عليه التحية وأنا أمر بجواره متحاشيًا النظر إليه. تذكرت أنني خرجت دون أن أحييه. مددت نظري للمطبخ القابع في آخر الطرقة بنوع من الحرج. فكرت أنني لا بد أن أرجع لعادتي القديمة بإلقاء السلام بصوت عالٍ على أصدقائي كلهم في الدخول والخروج، لا أن أكررها بصوت خفيض، خاصًّا كل صديق بتحية. هذا سيجنبني أي صورة غضب محتملة مثلما يعاملني البوفيه الآن. ربتت على الفوتيه وهمست له أن يتجلد. جروحه كثيرة ولحمه متدلٍّ خارجها، يقف عليه الذباب والناموس ومع ذلك يتحملني بوفاء صديق حقيقي. في مرة أنبت نفسي على تلك القسوة التي أعامله بها، فقررت أن أعالجه بنفسي. حاولت تثبيت الضمادات على جسده، إلا أن ذعري من تألمه المكبوت منعني من تخييط جرحه بصورة صحيحة. اقتنعت بوجوب عرضه على طبيب. ربتُّ عليه ثانية وطمأنته بأنني سأفعلها بمجرد الحصول على المعاش. مددت ساقي شاعرا بحلاوة الراحة بعد التعب.

اختار لي التليفزيون قناة مملة. جاهدت لإخفاء مللي منها لكيلا أضايقه. أتى إلى المطبخ وسألني إن كنت أريد أن آكل. شعرت بالسعادة لأنه جدد عادة هجرها يوما بأكمله وشكرته. لا أشعر بالجوع الآن. شردت ببصري وتساءلت إن كانت غلطتي غير المقصودة سببا في مزيد من السعادة. لكنني سرعان ما نفضت أفكاري السيئة ونظرت إلى وجه التليفزيون الطيب وبدأت أؤنب نفسي ثانية. هم يفعلون كل شيء من أجلي وأنا أتململ وأشكو. ما بال القناة؟ إنها رائعة! يكفي أنه يتعب هكذا لإرضائي. ناداني سريري بحزم، اعتدلت مبتسما وتردد صوت خبيث في داخلي بأنه أنقذني من ورطة التليفزيون. أنا لا أريد إغضاب السرير أيضا على أي حال. سدت المنضدة التي أرقدت رأسها على قدميها الأماميتين فتثاءبت وتمطّت في عصبية مليئة بالدعة. فعلتها وألقيت السلام عليهم جميعًا بصوت عالٍ. نعم. تصبحون على خير. في الباكر يوم حافل إن شاء الله.

الضفة الأخرى

مثل كل يوم. أرفع السماعة وأضرب رقمها، واقفا ناظرا إلى اللاشيء، وقد تحول كياني كله إلى أذن كبيرة.

مرت خمس رنات ولم ترد، اعتراني شيء من تردد بأنني أخطأت الرقم، الساعة الآن الثالثة والنصف صباحا.

وضعت إصبعي على لسان الهاتف منهيا المكالمة، لا يمكن أن أكون قد نسيت رقمها، لا. أخطأت في رقم ما. ربما ضغطت على 8 بدلا من 9. طلبت رقمها بعناية، وبحرص أكثر هذه المرة، لست أدري لم أفعلها كل مساء. ربما أن الليل نهر ضفته الأولى لديَّ، والثانية لا بد أن تكون عندها. سمعت الرنين الجديد، الذي يوحي لي دائما بأنه رنين الرقم الصحيح بعد مكالمة خاطئة.

سرحت مع الرنة المعدنية، تذكرت.

- ألو.

- ألو.

- مساء الخير.

– مساء النور. من؟!

– لا يهم.

ابتسمت ابتسامة واسعة، نظرت في ساعتي. الثالثة صباحا. قلت بنعومة زاد منها صوتها الدافئ:

– اتفقنا.

– عندك وقت لبعض من الحديث؟

– جدا!

وأخذت تتكلم، وأنا أسمع. صوتها يشي بأنوثة حقيقية، بالإضافة إلى شيء ما لا أدريه، ولكنه يجعلني مرتاحا تماما. وهو المهم.

إنها لا تجد ما تفعله. شقة نائمة وهاتف يتملق اللمس، ورقم عشوائي يتصادف أن يحمل اسمي. نجحت في أن أنتزع منها الضحكات، والإعجاب بطريقتي في التفكير، حشدت كل مهاراتي في التعرف على لغز الصوت الدافئ.

كل يوم كانت تحادثني، وتضيف إليَّ تفاصيل جديدة من تفاصيل حياتها. هي طالبة بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية في سنتها الثالثة، لها أخ أكبر، وأختان أصغر، وأب ذو وظيفة مرموقة وأم لا تهتم سوى

برسائلها الأكاديمية. تحب المرح والنكتة. تحب الحياة. ولكن حبها لهذه الحياة قد بدأ يتآكل، وبدأت هي تهاتفني.

كنت أدرك حب الرثاء الذي يتملك كل البشر، وأعرف تماما أن خيال بعضهم يتجاوز الأرض حجما والبحر عمقا، لكنني صُعقت بكل حكاياتها، وتفاصيل حياتها، وبدأت هذه البنت تشدني إلى أغوار أشد عمقا.

– هل تعرف أنني ذهبت إلى مخرجي الإعلانات؟

– عظيم. يمكنني أن أراك في إعلانات المساء. أليس كذلك؟

– هاهاها. لست مضحكا يا أخ. على العموم لقد أعجب صاحبنا بي تماما.

– ليس لموهبتك الخارقة في التمثيل؟

– بالطبع.

وجدت نفسي قريبا من منطقة الصراخ وأنا أقول:

– وبعد؟

– وبعد ماذا؟

- ما دمتِ تعرفين دوافع إعجابه، لِمَ ذهبتِ أساسا؟

- لست أدري. ربما أريد أن أجرب شيئا جديدا.

أنهيت المكالمة بسرعة، وأغلقت الهاتف في توتر.

ضبطت نفسي بعدها أحدق في الهاتف البارد، والساعة في يدي لم تتجاوز الثانية والنصف صباحا، وأنا أفكر فيما أفعل في نصف الساعة المتبقي.

- لقد تركت «وائل».

- لا إله إلا الله. ولِمَ؟

- لا أحتمله. ولن أحتمله بعد ذلك.

- كانت علاقتكما مباشرة.

- كانت.

أعرف أنها تتوق إلى الزواج، ولكنها تهرب عندما توشك على الدخول في منطقة الجد، ينتابها رعب فظيع، غير مبرر، وتقول: لا.

تسألني منذ أول يوم عن قلبي. الفارغ تماما كآنية في بيت فقير،

بالطبع كان هناك فعل ماض بل و«أفعال» أيضا. لكن الآن لا..

كانت تقول دائما:

- تزوجني واخلص، وخلصني معك!

عندما كنت أضحك وأرفض، وأرفض وأضحك، كنت أحس بشيء ما.

في يوم قالت:

- لا بد أن أراك.

هيَّجت كلمتُها الأفكارَ القديمة، التي طالما راودتنيَ بأن أراها، والتي حسبتها إلى الآن من مبدأ «التقلان» في البداية. ومن مبدأ الغرق في دوامات حياتها الغريبة في النهاية أجبت:

- أراك؟!

- ما لك مستغرب هكذا؟

- أبدا. ولكن.

- ماذا؟

– ولكننا لم نتكلم في ذلك أبدا، ونحن نهاتف بعضنا منذ 6 أشهر!

– وحان وقت الكلام. والفعل.

– وحان وقت إثبات أنك عجوز متصابية!

– اخرس!

– إذًا فتاة بشعر أجعد ومنظار ثقيل!

– حسنا يا أستاذ. سترى.

– على العموم أنا ممتن لك جدا؛ لأنك أنت من ستخبرينني بفضيحتك، لا أحد الأصدقاء، بعد مهمة سرية، أوسكار وايلد يقول الصديق هو.

قاطعتني مكملة:

– من يطعنك من الأمام. الرسالة وصلت وعرفنا أنك مثقف.

نزلتُ من التاكسي، سوّيت ملابسي واتجهت إلى الكازينو الأنيق المطل على نيلَ القاهرة بجوار قصر النيل. توقفت أمام بائع الكتب أمام المدخل، طفت أبحث عن لا شيء في صفوف الكتب المتراصة. أخيرا

فعلتها، وعبرت الباب.

رميت حبال عينيَّ فوق الكراسي، منتظرا أن يشبك خطافي في عروس البحر الغامضة.

شبك الخطاف، ولكنه شبك من الظهر. شعر أحمر على هيئة ذيل الحصان، وظهر قسيم يغلفه قميص بنفسجي اللون، يكاد في درجته يقارب الأبيض.

اقتربت دون أن أفكر؛ لأنني إذا ما فعلت سأدور على عقبي وأطلق قدميَّ للرياح. من المؤلم هدم الأساطير التي تخبئنا في صدورها، لتقينا الأعاصير والنوات.

اتجهت إلى اليمين قليلا، لأتيح لنفسي منظورًا أوضح، وعندما اقتربت رأيت شفتين ناضجتين وصدرًا يانعًا وأهدابًا تختلج في جمال.

– «ريم مراد. رقم تليفوني هو .».

هكذا قالت قبل أن تغلق الهاتف، ازدردتُ لعابي وقلت:

– ريم؟

التفتت إليَّ، وعوجت رأسها في جزء من الثانية ونظرت بعينين

بلون العسل نظرة ثابتة، قبل أن تظهر «نغزتاها» على جانبي فمها وهي ترد باسمي.

مددت يدي لكوب العصير، حاولت أن أكون متماسكا. لقد ودعت سن المراهقة، ولكن مفاجأتها لا تغيب، بل الأجمل في مفاجأتي هو جمال «ريم». الجمال الذي ربما لا نجده في حنايا المراهقة، لكننا نرضى على أي حال.

تكلمنا كثيرًا. قالت إنها لم تتخيلني هكذا، أجبت بالمثل. وبكل صدق. انحنت عليَّ وقالت:

– أتعرف؟ لا أعرف ما بي، المفروض أنـي أعلم عنك كل شيء، لكن شعورا ما يعتريني، ويقول لي إننا أغراب.

– المعرفة لا تتأكد إلا بالوجوه.

هي تعلم عني كل شيء. تعلم عنواني وتليفوني وأذواق ملابسي وأغنياتي وكتبي وتفكيري ومغامراتي ومعاصيَّ وحسناتي، وبالطبع الأطعمة التي أحبها.

عندما أركبتها التاكسي أحسست بيدها الدافئة تختلج في يدي.

آمنت بالله، وعرفت أنني أسعد مخلوق على وجه الكون، وبدلا من

أن تتصل بي، أصبحت أنا الذي أتصل بها.

أبت «ريم» أن تنضم إلى زمرة المؤمنين إلا بعد جهد، فهي لا تحب التصريح. التلميح يخسرك أقل.

كلمتها بأسلوب سيئ. اكتشفت أنني ما زلت أعرف عنها أشياء جديدة في كل يوم أحدثها فيه. وسألت نفسي السؤال الأهم: ألن أتوقف عن ذلك؟

من هي؟ في كل يوم أكتشف «كولومبوس» جديدا وأرضا جديدة.

صرخت في:

– لست أنا. لست أنا.

رددت في مرارة:

– ومن أنتِ يا «ريم»؟

– أنا التي لا يفهمها أحد، ولا يحادثها أحد، ولا يؤنس وحدتها أحد.

– ومن أنا يا «ريم»؟

لم ترد. أغلقت الهاتف. دخنت سيجارة في أحشاء الليل الذي

شهد أول موعد لنا. ووقفت أنظر من النافذة. القاهرة التي لا تنام ولا تجعل أحدا ينام.

طوال ثلاثة أيام لم أتصل، طوال ثلاثة أيام فعلت كل الحماقات التي يفعلها التائهون، نوم بلا طعم ومقهى بلا رائحة، ومرآة بلا لون.

وأدركت – للمرة الأولى في حياتي – أنني قارب بلا ماء.

من أجل ذلك رفعت سماعة التليفون الآن.

– «ألو. ألو. ألو!».

تنبهت من سرحاني، لا بد أنه والدها. اعتراني خوف مفاجئ وأغلقت الهاتف.

ثلاثة أيام أخرى، رد فيها أبوها، أو لم يرد أحد على الإطلاق. هي تعاقبني؟! هل تتصنع «التقلان» عليَّ أنا؟! هل تتركني لنيراني بلا رحمة؟!

الساعة السابعة مساء، جرس آلي محايد، لا يحمل طاقة الحسم بداخلي. صوت الأب يُبادر:

– ألو.

- ألو. مساء الخير يافندم.

- مساء النور.

- هل أستطيع محادثة الآنسة «ريم مراد»؟

توقف الصوت لحظة طويلة، دفعتني للقول:

- أرجوك. إذا سمحت. أريد محادثتها في أمر مهم.

ساد صمت تام.

- آسف على الإزعاج. آسف جدا. لكنني أريد محادثتها في أمر مهم حقا.

اكتسى صوته بتراب وغبار، وهو ينحدر إلى أغوار سحيقة:

- ابنتي ماتت يا أستاذ. انتحرت منذ 5 سنوات.

تركت السماعة تسقط من يدي، حدقت في الهاتف بلا تصديق.

المعراج

دلفت إلى المصعد. نظرت إلى الصارم الواقف أمام لوحة الأزرار. ضغط دون أن يسأل، ولم أشعر أنا بوجوب القول. زيه الأزرق المزركش بمسطحه الأحمر العريض وأزراره الذهبية بدا مهندما مكويا بشكل مستفز. ظل قبعته حجب عينيه الشاخصتين إلى جدار المصعد الفضي دون أن تتحولا يمنة أو يسرة. توقف المصعد ودخل رجل أنيق وامرأة متأففة. وقفا أمامي وكأن هنالك حاجزا خفيا يفصل بيننا. توقف المصعد مرة أخرى. فدخل طفل مبتسم ومعه سيجارة يمتص دخانها في جشع. نظرت المرأة المتأففة إليه ولكنه نفث دخان سيجارته باستمتاع. ظل المصعد في صعوده حتى دلف إلينا نمر وانزوى بنفسه وأخذ يتأمل صورة ذقنه النابتة المنعكسة على جدار المصعد ويتوسدها بين الحين والآخر. نزلت السيدة المتأففة فيما يبدو كرد فعل على دخان سيجارة الطفل ذات الرائحة المعطرة. دخل شبح متأنق ينظر إلى ساعته بحركة عصبية. ظهر شيطان في فراغ الباب ولكنه لم يدلف، إنما مد يده مبتسما إلى الطفل الذي تلقفها بمرح وخرج. دخلت أفيال ودراجات وأسماك قرش ساهمة ونجمتان في حالة غزل. نزل الرجل الأنيق وهو يلمس رابطة عنقه لمسات أخيرة مثلما يُقلب المايسترو صفحات نوتته برهافة. دخلت ثعابين وبومات وكائنات

فضائية ملتحية وامرأة مغوية وقناديل بحر وخراتيت وإخطبوط يبدو عليه الخجل. نظر إلى النمر نظرات مترددة فقررت تجاهله دون أن أدري لماذا. خرجت النجمتان المتحابتان فاستراحت عيني قليلا. دخلت عربة ضخمة ببطء وسائقها حريص على «ركنها» بالشكل الأمثل. نزل مسويًّا هندامه وناول الصارم مفاتيحها وخرج. ظل المصعد في صعوده إلى أن خرج الصارم ثم التفت إلينا والباب ينغلق بتؤدة حاجبا عنا نظراته الهادئة. استمر المصعد في حركته المطردة إلى الأعلى فقطع تساؤلي الذي حسبته منطقيًّا. انفرج بابه فدلف إلينا الماء بعنف كالمطارد. خرجت الخراتيت والبومات والأفيال سابحة وصدحت بالغناء. خرج الأكسجين سريعًا لاحقا بها، تاركا الماء يلتحف برئتي بلهفة، وقد بدا أنه وجد مستقرًّا.

الفهرس



محمد علاء الدين

الضفة الأخرى

" نجح في أن يخوض في مواضعات
غير تقليدية في الكتابة ولم يخضع للأمور المسلم بها"
بهاء طاهر

"عدة مكونات في إنجيل آدم تكشف مقصدية الكاتب ذات الطابع الكوني، الانساني، فالنص، بشكله المندرج تحت المحكى الشعري، وبتوجهاته التجريدية ولغته المكثفة، الموحية، يتوخى ملامسة اسئلة وجودية تتخذ من حيوات الناس وسلوتهم وسيلة لطرح شروط الحياة المتارجحة بين الظلم والعدالة.. وهذا النص الذي يحمل الينا خلاصة مجابهة الوعي الفردي لمجتمع قائم على الاختلال، يتحيز في النهاية لقيم الفردانية الطامحة الي تغيير الموروث والالتصاق بما ترغب فيه الذات ويشكل جوهرها"
د. محمد برادة - الرواية العربية ورهان التجديد، عن إنجيل آدم.

" تتحرك المجموعة القصصية في عوالم ملتبسة وغامضة تمتاز بوحشتها الشديدة وايضا بلغتها الميكانيكية والمحايدة لدرجة الإخافة في كتابة تثير الأسئلة أكثر مما تثير من الأجوبة"
أخبار الأدب- عن مجموعة الضفة الأخرى

لقد استطاع محمد علاء الدين ان يضع ركنا جديدا في عالمه الروائي، الذي تبدو كل حلقة فيه وعدا جريئا بمشروع يؤكد علي رسوخ صاحبه كمساهم اساسي في حركة الرواية المصرية المعاصرة.
أخبار الادب- عن الصنم



